

غسان سلهب في «الأرض المجهولة»

شخصيات عائمة في فضاء بيروت المعلق

للتعلق بكارول محاولة إقناعها بالبقاء. تجول ليلى في المدينة وتجلس طويلاً وحدها برفقة البحر، بحر بيروت. ويعيش نديم (وليد صادق) الذي يعمل كمهندس في عمارات بيروت الشاهقة، منعزلاً، يقفل على نفسه غرفته ويقضي كل وقته أمام جهاز الكمبيوتر في محاولات لإعادة إعمار مدينة عامرة بالمساحات الخضراء، جميلة أكثر ومختلفة.

طارق (ربيع مره) العائد إلى لبنان حديثاً، لا يعرف إن كان عليه البقاء أم معاودة السفر، يشعر أن المدينة لم تعد تفتح أذرعها لاستقباله، أنه غريب عن المكان، مع ذلك فهو لا زال يحتفظ بعاطفة تجاه كارول التي انصرفت عنه.

أخيراً هناك حيدر (كارولوس شاهين) الذي يلعب في الفيلم دور مذيع أخبار يعيش في عزلة تامة ولا يطل على العالم إلا من خلال هذه النافذة نافذة قراءة الأخبار والصحف، التي يمارس خارجها الرياضة ويهوى أكل الفواكه الطازجة، في مدينة تتسع مع ذلك لمثل هذه الشهوات الصغيرة.

ويحضر الغناء في الفيلم كشرط صوتي طبيعي فالشخصيات تغني وحيدر يردد وحده في كل مرة وهو يتناول الطعام أغنية حزينة، نسمع الغناء في المقهى وفي أجهزة الراديو وفي السيارات ويأتي هدير الطائرات الإسرائيلية التي لا تغيب عن سماء المدينة وتلك القادمة إلى مطار العاصمة، ليضاف إلى ضجيج العمارات والورش وأجراس الكنائس وصوت الأذان وباختصار كل أصوات المكان، الذي عادة ما تمحوه الأفلام

عن زمن ما آخر، عن أشياء أخرى من دون أن تفعل فيشعر المشاهد بالماضي ينام في وعي كل شخصية، يهزها، يجعلها تسكت عن الحديث عنه، مع أنها تتابع العيش فيه بشكل من الأشكال.

لا تثير الشخصيات ماضيها، ومثله لا تتحدث بالمرّة عن المستقبل، كأنها تعيش في مساحة فارغة، في أجساد انعدمت أوزانها وصارت في حالة أخرى تعيش لحظتها فيما يتخطى حالات الحزن والفرح والاكتئاب، كأنما هي شخصيات تتفرج على نفسها وهي تعبر في حمى اللحظة، وهي تتساءل قبل أن تترك التساؤل سريعاً لتحدث نفسها في مونولوجات يعلوها ضجيج الأمكنة في المدينة الورشة.

الشخصيات الأساسية في الفيلم ثريا وليلى وطارق ونديم وحيدر، تعرف بعضها بشكل عام، تتقاطع في العلاقات، وفي الحياة من دون أن تلتقي فعلاً. شيء ما يحول بينها وبين اللقاء العميق.

ثريا (كارول عبود) تسعى لمغادرة البلاد. وتكدس لديها أذون السفر إلى عدد من البلدان الأجنبية، لكنها لا ترحل وتبحث عن عشاق مؤقتين سرعان ما ترميهم مثل حبة العلكة، كأنها المدينة تطلق لجسدها العنان، ولا تبالي بعملها ولا تحبه، علماً بأنها تقوم بدور المرشدة السياحية.

أما ليلى، فهي الشخصية الأكثر تعقيداً في الفيلم، نراها مستمرة في حوارات مع نفسها، وفي صداقتها لكارول، في اتساحها بالسواد علامة للحداد الأبدي، تريد التعلق بنوع من الإيمان الروحي الذي تبدو غير قادرة عليه، فتعود

هناك أولاً بيروت، وفي النهاية هناك بيروت التي تحولت في سينما غسان سلهب إلى مرادف للوطن الذي أصبح بدوره مرادفاً للسينما. بيروت «هي المكان الوحيد الذي يمكن أن أعمل فيه سينما» يردد غسان الذي قدم فيلمه الطويل الثاني «الأرض المجهولة» ضمن تظاهرة «نظرة ما» في مهرجان كان السينمائي الخامس والخمسين.

لا يهتم فيلم الأرض المجهولة باعتماد نسق روائي كلاسيكي في المعالجة السينمائية التي يقترحها المخرج، بل هو يحاول تصوير حالة للمدينة من خلال شريحة من الأشخاص الذين يرتبطون بها بعلاقات إقامة أو ابتعاد، برغبات جامحة في الإقامة أو في طلب الهجرة من المكان الذي يبدو، رغم طبقاته التاريخية التي كشفتها الحفريات ورغم تاريخه القديم العريق مكاناً ملتبساً، سطحاً عائماً بدون أبعاد، لكن له قوة المغناطيس وسحر الجذب إلى خانات مكانية تستحيل على التعريف، فكأن المكان وهم مركب رغم واقعيته، كأنه مستحيل.

شخصيات «الأرض المجهولة» تنمو في هذا المكان بالذات، المكان الذي صور فيه سلهب قبل أكثر من خمس سنوات فيلمه الأول «أشباح بيروت»، والذي عالج فترة زمنية دارت أحداثها في قلب الحرب. تعيش الشخصيات في بيروت اليوم، بيروت ما بعد الحرب، لكن هل فعلاً انتهت الحرب اللبنانية وكيف؟ سؤال يطرحه الفيلم، من دون أن يطرحه إلى جانب أسئلة أخرى كثيرة. تبدو الشخصيات حائرة، عابرة، قلقة، حزينة كأنها تبحث



هدى إبراهيم

باعتتماد عمليات تسجيل صوت داخل الاستديوهات.

هم نقل الحياة في المكان يعترى المخرج الشاب الذي عمد إلى العمل مع ممثلين يعرفهم فكتب سيناريو لهم واستفاد في بعض الجوانب من حياتهم الشخصية ومن ملامحهم التي لا تبتعد عن الحزن. إنه شكل حياة لشباب معين يعيش الراهن بعد أن اجتاز حرباً فظيعة دمرت كل شيء، دمرت الأمكنة كما ألحقت خسائر فادحة بتلك النفوس التي ما عادت تعرف طعم الابتسام، لكن حزنها يظل عالياً نبيلًا وشفافاً أقرب إلى اللحن الحزين.

يزدحم المكان بالغباب والأصوات، ويطلع الممثل في «أرض مجهولة» من أرضية قائمة بين الاحتراف التمثيلي وعدمه، فالممثل عند غسان سلهب لا يقوم بأداء دوره على طريقة الاستيطان التي انتهجتها ستانيسلافسكي، وإنما يلعب في مساحة كأنها حافة قائمة بين عالمين ويضطر معها الممثل باستمرار للحفاظ على توازنه في الفيلم المفتوح الذي لا يحمل بدايةً ووسطاً ونهايةً بالمعنى الكلاسيكي للكلمة.

إلا أن «الأرض المجهولة» يظل محاولة من المخرج لاكتشاف صلب تلك الأرض التي بقدر ما هي مسطحة وصغيرة بقدر ما هي محيرة ومجهولة وحافلة. فالشخصيات تبدو في يومياتها وكأنها تأخذ الشيء الكثير من الحياة، لكنها في نفس الوقت تبدو خارج الحياة تماماً، كأنها شخصيات معلقة في فضاء هو نفسه معلق، وهي في النهاية شخصيات لم تعد تملك أهدافاً واضحة وقوية تسعى إليها في حياتها وباتت موجودة في المكان الذي يمكن تشبيهه بالطريق، حيث تواصل المشي، لكن فيما يشبه العوم أو الطفو.

في أحد مشاهد الفيلم، تحلم ثريا بمشهد زواج يتم بين اثنين من معارفها كأن الارتباط الرسمي، لم يعد قابلاً للتحقق في المكان إلا داخل شرنقة اللحم، خارج الواقع وخارج الحياة. يخترق هذا المشهد الجو الشعاري الحزين الغالب على الفيلم، وينقل المشاهد إلى أجواء ذات إيقاع مختلف ولنقل أقل حزناً وحيث تبدو كارول بفستان أحمر ارتدته خصيصاً للمناسبة.

تدخل كاميرا المخرج أيضاً إلى اللعب

الليلية في بيروت الليل، وتلتقط مشاهد جميلة من صخب الحياة فيها تحت أضواء زرقاء وحمراء ساحرة. ولا يغيب هم الجنوب اللبناني عن فيلم غسان سلهب الذي يقدم فيه رؤيته لتلك الأرض، وهو يقبل عليها إقبال جائع، إقبال من يريد المعرفة، يحملنا بصحبة ثريا المرشدة السياحية إلى العديد من الأماكن في لبنان وخاصة جنوبه، حيث تدور سيارة السياح ووراءها الشاب الذي خرجت معه ثريا لليلة، وتركنه فراح يلاحقها، تصل السيارة إلى رأس الناقورة وتجول على طول الحدود اللبنانية الإسرائيلية ثم تنتقل إلى قلعة الشقيف قرب النبطية..

تشكو هذه اللحظات من إطالة غير ضرورية وهي تهرق عاتق الفيلم وتمط من مشاهده التي كان يمكن أن تختصر إلى ما هو أقصر وأكثر دلالة، لكن الفيلم في مجمله يقدم رؤية صادقة قادرة على إقامة علاقة مع المشاهد، قادرة على مخاطبته، في أسلوب سينمائي جديد، أقرب إلى «الدرجة صفر للكتابة» في السينما وفي الصورة.

يشهد لغسان سلهب شجاعته وإقدامه، على ممارسة السينما مجدداً، رغم العذابات الانتاجية الجمة التي لاقاها في فيلمه الأول «أشباح بيروت» وأيضاً في فيلمه «الأرض المجهولة» الذي أنجز بإنتاج لبناني - فرنسي مشترك وكلفه نحو ستمائة ألف دولار وهي ميزانية وازتها ميزانية كثير من أفلام الجنوب والبلدان العربية التي خرجت بنتائج مشتركة مع فرنسا.

«الأرض المجهولة» يتابع فيلم «أشباح بيروت» ويكملة لجهة الثبات في معالجة المكان وناسه ورؤية المخرج لكليهما في نظرة ذاتية حانية ومتفهمة قبل كل شيء خاصة وأن الشخصيات مبنية على عوالم نفسية وحالات أكثر منها على طبائع وخصائص فردية يتطلبها دور معين بالمعنى الكلاسيكي للكلمة.

أرض مجهولة أم بلد مستحيل ذلك الذي يصوره غسان سلهب؟ لا شك أن الإجابة تحتاج فيلماً آخر عن مرحلة جديدة في مستقبل ما وربما أفلاماً. ●

ملصق الفيلم
ومشهد منه.

